الأهمية الإستراتيجية
لجزيرة مالطة

الفصل السادس

obeikandl.com

obeikandl.com

انتهت معركة الكروسيدر في منتصف يناير 1942 بانتصار الجيش الثامن، ونجاح الجنرال أوكنلك في استعادة برقة في الوقت الذي قبع فيه روميل خلف خط العقيلة الحصين يلعق جراحه، ويعيد تنظيم قواته، وإزاء الخسائر الفادحة التي تكبَّدها الجيشان المتحاربان خلال المعارك العنيفة التي احتدمت بينهما فوق رمال الصحراء اللاهبة؛ لذا أصبح وصول الإمدادات إليهما، وخاصة الدبابات هو العامل الحاسم في الجولة القادمة التي كان يتوقعها الجميع بين الجنرالين الكبيرين أوكنلك البريطاني وروميل الألماني.

وكان كل من القائدين مصمِّمًا على القيام بهجوم شامل يدمِّر خلاله قوات خصمه، ويُلحق بها هزيمة ساحقة تقضي على دورها كقوات مقاتلة لينهي بذلك مسلسل الكر والفر، والمد والجزر، ويضع ختامًا لذلك الصراع المرير والقتال الدامي بين قوات الجيش الثامن وقوات الفيلق الأفريقي، وكان أوكنلك قد وضع خطته على أساس أن يواصل الجيش الثامن في أقرب فرصة تقدُّمه غربًا ـ بعد حصوله على الإمدادات ـ حتى يتم له الاستيلاء على العاصمة الليبية طرابلس، وأن يطرد الألمان والإيطاليين نهائيًا من شمال أفريقيا في الوقت الذي كان فيه ثعلب الصحراء روميل ينتظر وصول الإمدادات إليه، ويعد العدة لهجوم مدرَّع كاسح يتمكَّن فيلقه الأفريقي عن طريقه من اقتلاع قوات الجيش الثامن من برقة، ثم الاندفاع وراءها بعد ذلك في مطاردة عنيفة داخل الحدود المصرية لا تتوقف إلا بعد أن تخفق أعلامه الظافرة على القاهرة والإسكندرية.

وكانت جزيرة مالطة برغم صغر حجمها، وابتعادها عن مسرح العمليات تلعب دورًا خطيرًا في الصراع الدائر على أشده بين القوات البريطانية وقوات المحور في الصحراء، بسبب موقعها الفريد في وسط البحر المتوسط بين إيطاليا شمالاً وليبيا جنوبًا، مما جعل البريطانيين يتخذونها قاعدة لعملياتهم البحرية والجوية التي استهدفت

إغراق ما في وسعهم من قوافل التموين، والإمدادات المتجهة من الموانئ الإيطالية إلى الموانئ الليبية، وقد تسبَّبت هذه العمليات في خسائر جسيمة في تلك القوافل البحرية بلغت نسبتها حوالي 35٪ في صيف عام 1941، ولم تلبث النسبة أن ارتفعت بالتدريج مع اشتداد حدة المعارك حتى وصلت إلى 75٪ في نهاية العام نفسه.

وعندما أدركت القيادة العليا الألمانية في أوائل عام 1942 مدى أهمية مالطة الإستراتيجية بالنسبة للبحر المتوسط، وتأثيرها الخطير على قوافل التموين والإمدادات المرسلة إلى الميدان الأفريقي تركَّزت عليها الهجمات الجوية العنيفة، كما نشطت عمليات الغواصات الألمانية ضد السفن الحربية البريطانية، مما أتاح الفرصة لطاقم كوماندوز إيطالي تحمله إحدى الغواصات من التسلُّل في قارب صغير إلى ميناء الإسكندرية، ومن الوصول إلى الأسطول البريطاني، حيث قاموا بوضع المتفجرات التي أدت إلى إغراق البارجتين الوحيدتين لدى أسطول البحر المتوسط البريطاني في ذلك الوقت، وهما: (كوين إليزابث وفالينت)، وبفضل هذا النشاط البحري والجوي تمَّت سيطرة المحور على وسط البحر المتوسط، وإغلاقه في وجه سفن الأسطول والقوافل البريطانية البحرية بعد أن تكبَّدت البحرية البريطانية أفدح الخسائر؛ إذ لم يعد لبريطانيا في البحر المتوسط سوى ثلاث طرادات، وعدد قليل من المدمرات، وفقد قائد أسطول البحر المتوسط الأدميرال كاننجهام سفينة قيادته بعد أن هوت إلى الأعماق في ميناء الإسكندرية.

ونتيجة لسيطرة المحور على وسط البحر المتوسط تمكَّن روميل من الحصول على إمدادات ضخمة من الوقود والمؤن والعتاد كان من بينها حوالي مائة مدفع مضاد للدبابات من عيار 88مم، كما استطاع استعاضة معظم ما خسره من المعدات، فضلاً عن استعاضة كلٍّ من فرقتيه المدرَّعتين (15 و21)؛ لخسائرهما من الدبابات أثناء القتال، علاوة على تزويدهما بوحدة مدرَّعة زيادة على مرتبتهما.

وعلى الرغم من انقطاع ورود الإمدادات إلى الجيش الثامن من بريطانيا عن طريق القوافل البحرية عبر البحر المتوسط؛ بسبب نشاط طائرات المحور وغواصاته فقد تحوَّل مسار الإمدادات البريطانية والأمريكية إلى طريق المحيط الأطلنطي، ومنه إلى رأس الرجاء الصالح، ثم شمالاً إلى البحر الأحمر ليتمَّ إنزالها على الموانى المصرية (السويس وبورسعيد والإسكندرية)، وبرغم طول هذا الطريق، وتعرُّض قوافل الحلفاء لهجمات الغواصات الألمانية فقد وصلت إلى الجيش الثامن كميات كبيرة من المؤن والأسلحة والمعدات كان أهمها الدبابات الأمريكية من طراز (شيرمان وجنرال جرانت)، والمدافع المضادة للدبابات من عيار 6 أرطال، فضلاً عن تعزيز سلاح الطيران البريطاني بالشرق الأوسط بعدة أسراب من القاذفات والمقاتلات الحديثة كان أهمها المقاتلات من طراز (سبيت فاير).

هذا وقد كان في مقدرة القيادة العليا الألمانية في أوائل عام 1942 الاستيلاء على جزيرة مالطة بسهولة تامة بواسطة القوات المنقولة جوًّا بنفس الأسلوب الذي جرى به غزو جزيرة كريت في 20 مايو 1941، وبرغم نجاح هجمات المحور في شلِّ مالطة كقاعدة بريطانية بحرية فإن القيادة العليا الألمانية لم تحاول الاستيلاء عليها، لكن الموقف تغيَّر في نهاية إبريل 1942 تحت ضغط الأدميرال رايدر قائد البحرية الألمانية، وبعد المناقشات العديدة التي أجريت مع الزعيم الإيطالي موسوليني؛ لذا أصدر الزعيم الألماني هتلر الأمر بمهاجمة مالطة بواسطة القوات الألمانية والإيطالية المنقولة جوًّا، وحدَّد الموعد ليكون في أول يونيو 1942 (العملية هرقل) بعد أن تبدَّلت النظرة إلى الميدان الأفريقي الذي كان يُنْظَر إليه في بادئ الأمر على أنه مسرح عمليات ثانوي، فقد أدركت قيادة المحور ـ ولكن متأخراً ـ مدى أهميته الإستراتيجية، وتأثيره الكبير على مجرى الحرب بوجه عام.

ولكن الهجوم على مالطة تمَّ تأجيله في الساعة الأخيرة، فقد فضَّل هتلر تأجيل العملية "هرقل" إلى ما بعد الاستيلاء على مصر، مما تسبَّب في خسارة كبيرة للمحور في

المستقبل؛ إذ أمكن للبريطانيين في النصف الثاني من عام 1942 استعادة سيطرتهم البحرية والجوية على وسط البحر المتوسط، وأصبح من المتعذّر على القوافل الألمانية والإيطالية اجتياز المسافة من موانئ جنوب إيطاليا إلى موانئ شاطئ الشمال الأفريقي دون تعرُّض معظمها للتدمير والإغراق، خاصة بعد وصول أسراب من المقاتلات البريطانية من طراز (سبيت فاير) إلى جزيرة مالطة.

سر تفوُق الدبابات الألمانية

كان انسحاب روميل إلى العقيلة عملاً يدل على براعة فائقة؛ إذ إن موقعها الذي تحيط به الموانع الطبيعية من كل جانب أجبر الجيش الثامن على التوقُّف عن مطاردة قواته، وكان على ثقة من مقدرته ـ عقب وصول الإمدادات إليه ـ على استرداد برقة فور تدميره القوة المدرَّعة البريطانية، وكان السر في هذه الثقة يرجع إلى تفوُّق الدبابات الألمانية على الدبابات البريطانية، سواء من ناحية بُعد مرمى المدفع، أو من ناحية سمك الدرع، ولم تكن الدبابة البريطانية المسلحة بمدفع من عيار 2 رطل المضاد للدبابات تصلح لقتال الدبابة الألمانية ماركة 3 أو ماركة 4 المسلحة بمدفع من عيار 50مم أو 75مم حتى أن اللواء 7 المدرع البريطاني فقد في معركة سيدي رزق في يوم 21 نوفمبر 1941 (خلال معركة الكروسيدر) كل دباباته ـ ما عدا 20 دبابة ـ، ولولا قيام القيادة البريطانية باستعاضة خسائر قواتها من الدبابات بمعدل 40 دبابة يوميًّا لخسرت المعركة، وفضلاً عن هذا التفوُّق النوعي في الدبابات الألمانية تفوَّقت فرق البانزر على الفرق المدرَّعة البريطانية في الاستخدام التكنيكي، فقد كانت وحداتها تقوم بعمليَّاتها في تعاون وثيق مع المشاة الألمانية، ومدفعية الميدان، والمدافع المضادة للدبابات من عيار 88مم المزوَّدة بالذخيرة الخارقة للدروع، ولم تكن تقبل الدخول في معركة إلا فوق أرض من اختيارها، وكانت لديها القدرة على استدراج الوحدات المدرَّعة البريطانية نحو الستائر الألمانية المضادة للدبابات المخفاة بمهارة، مما كان يؤدي إلى تكبُّد الوحدات البريطانية خسائر فادحة، وكان نظام النجدة والإصلاح في فرق البانزر الألمانية يفوق كثيراً هذا

النظام في نظيره البريطاني، فقد كانت الورش المدرَّعة الألمانية تقوم بإصلاح الدبابات المعطَّلة في المنطقة الأمامية التي يدور فيها رحى القتال دون حاجة إلى سحبها إلى الورش الخلفية، مما كان يتيح الفرصة للوحدات الألمانية لدخول المعركة بعدد من الدبابات يفوق كثيراً ما يتوقَّعه البريطانيون.

لقد استخدم روميل الفيلق الأفريقي متَّبعًا أحد مبادئ الحرب الأساسية، وهو مبدأ الحشد، فقد كان دائمًا يستخدم قواته المدرَّعة في أعظم حشد يمكن أن تسمح به طبيعة الأرض وظروف المعركة، ولذا استطاع أن يحرز التفوُّق العددي في الدبابات على الفرق البريطانية التي تواجهه، والتي كانت تستخدم وحداتها المدرَّعة في مجموعات مبعثرة مما هيَّأ لروميل إحراز النصر في معظم معاركه.

لقد كان روميل ثعلب الصحراء قائداً فذًّا قاد قواته قيادة ممتازة اتَّصفت بالمهارة والجرأة والإقدام، وقد قال عنه خصمه البريطاني الأول في حرب الصحراء الفيلد مارشال أرشيبالد ويفل: "إن روميل ظاهرة شاذة وفلتة نادرة في التاريخ الحربي".

وبسبب جرأة روميل وشجاعته الخارقتين في ميدان القتال كاد يتعَّرض للأسر عدة مرات، ففي أثناء احتدام معركة الكروسيدر، وخلال فترة الاضطراب، وتداخل قوات البانزر الألمانية مع قوات الجيش الثامن البريطاني أمضى روميل والجماعة المرافقة له من مركز قيادته ليلة 25 نوفمبر 1941 وسط قوات الفرقة الرابعة الهندية ظنًّا منهم أنهم بين قواتهم الألمانية، وعندما اكتشفوا الحقيقة أمره روميل بالتسلُّل في هدوء، والخروج بسرعة من معسكر الهنود قبل أول ضوء؛ خشية انكشاف أمرهم.

وبعد ظهر اليوم التالي قام روميل أثناء تفقُّده مواقع قواته بزيارة مستشفى ميداني كان مليئًا بالجرحى البريطانيين والألمان، واكتشف روميل في أثناء مروره بين الأسرَّة أن الضابط الطبيب الذي يرافقه في جولته بريطانيًّا، وأن المستشفى الميداني كانت لا تزال في أيدي البريطانيين، وأن كل حُرَّاسة منهم، ولحسن حظه لم يكتشف الضابط الطبيب

البريطاني شخصيَّته، وكان يظن أنه جنرال بولندي، بينما حملق الجرحى الألمان بدهشة إليه، وبدءوا يجلسون على الأسرَّة عندما كان يمر بينهم، وهمس روميل لمرافقيه: "اعتقد أن علينا الخروج بسرعة من هنا"، وقفز إلى عربته بعد أن تلقَّى تحية أخيرة من الضابط الطبيب البريطاني الذي لم يعرف ذلك الصيد الثمين الذي كان في قبضة يده، وتركه يغادر المستشفى بسلام.

وفي النصف الثاني من يناير بدأ روميل ـ بعد أن تداعمت قواته بوصول الإمدادات إليه ـ في الاستعداد لشنِّ هجوم مضاد واسع النطاق لاستعادة برقة، وطرد الجيش الثامن إلى ما وراء الحدود المصرية، وفي 21 يناير 1942 تقدَّمت قوات المحور من العقيلة، ولم تجد صعوبة في احتلال إجدابية، وأجبرت القوات المدرعة البريطانية بعد معركة قصيرة على الانسحاب شرقًا، وحاولت القوات البريطانية المنسحبة التمسُّك بخط بني غازي، ولكنها فشلت في الثبات على هذا الخط بعد أن نجحت قوات المحور المدرَّعة في تطويق المدينة واحتلالها في 28 يناير، واضطرت القوات البريطانية إزاء هذا الموقف إلى مواصلة الانسحاب بأقصى سرعة في اتجاه الشرق، وقرَّر الجنرال ريتشي قائد الجيش الثامن احتلال خط الغزالة ـ بير حكيم ـ، والثبات عليه بأي ثمن، وتمكَّنت القوات البريطانية من احتلاله في 4 فبراير 1942، وعلى جانبي هذا الخط توقفت العمليات الحربية لمدة أربعة شهور واصل فيها الجيشان المتحاربان الاستعداد لخوض غمار المعركة الحاسمة التي ستحدِّد مصير برقة.